

دعوة إلى التراث الشعبي - الحلقة الثانية مبادئ جذرية في فهم علم الفولكلور

مجلة التراث والمجتمع العدد 43 - سلسلة دعوة إلى التراث الشعبي - د. شريف كناخنة - 2006/12/20م - 11:30 ص



استعرضنا في الحلقة الأولى من هذه السلسلة تاريخ نشوء الحركة الفولكلورية الفلسطينية كما وضّحنا بإيجاز كيف أن هذه الحركة كان وما زال يشوبها الكثير من الفوضى والبلبلة في فهم علم الفولكلور، ووعدنا في نهاية الحلقة الأولى أننا سنكرّس الحلقة الحالية للتعرف على بعض هذه المشاكل، ولتصحيح بعض الأخطاء التي وقعت فيها الحركة الفولكلورية الفلسطينية في الماضي، ونأمل أن نوفق في هذه الحلقة بالوفاء بوعدنا.

الإنسان صاحب الثقافة: دعونا نبدأ الحكاية من أولها فنقول أن الإنسان يختلف عن غيره من الكائنات، حتى أرقاها وأذكاها، بأن للإنسان "ثقافة" وهذا ما لا يوجد عند الكائنات الأخرى.

هل هناك ما يبرر قولنا هذا، أم أنه مجرد ادّعاء نابع من استعلاء بني الإنسان على غيرهم من المخلوقات؟

قلنا أن للإنسان "ثقافة" ولا نقصد بهذا المصطلح المعنى السائد للثقافة عندما نصف شخصاً ما بأنه "متقف" أي أنه على معرفة بالعلوم والفنون الراقية، بل كما يستعمل في العلوم الاجتماعية بمعنى أسلوب حياة مجتمع من المجتمعات، أي أنماط السلوك والتفاعل في حياتهم اليومية العادية. ولكن أسلوب حياة الإنسان العادية تختلف عن أساليب حياة الكائنات الأخرى في صفتين هامتين على الأقل تجعلنا نسميها "ثقافة" ونميّزها عن أسلوب حياة الكائنات الأخرى:

الصفة الأولى هي أن ثقافة الإنسان - كلّها مُتعلّمة، يتعلّمها كل جيل من الجيل السابق، ولا يرثها بالجينات أو الموروثات البيولوجية أو كما يقول عامة الناس "بالدم" ويشار إلى الانتقال بالتعلّم جيلاً عن جيل باصطلاح "الوراثة الاجتماعية" تمييزاً لها عن "الوراثة البيولوجية" والتي عن طريقها تكتسب الكائنات الأخرى، غير الإنسان، القسم الأكبر من سلوكها وأساليب حياتها.



صحيح أنّ الحيوانات تستطيع أن تتعلم بعض أنواع السلوك من بعضها البعض، وكذلك يستطيع الإنسان أن يُربّب بعض الحيوانات لتسلك بطرق لم تكن تعرفها من قبل كما هو الحال في تدريب كلاب الصيد أو العديد من الحيوانات المستعملة لتقديم العروض في "السيرك"، وهذا يوصلنا إلى الصفة الثانية الهامة لأساليب سلوك الإنسان، وهي: أنّ الإنسان يتعلم عن طريق الرموز. وأهم أنظمة الرموز التي يستعملها الإنسان اللغة. عن طريق اللغة يستطيع أب مثلاً أن يعود إلى عائلته ويخبرهم عمّا حدث له أثناء العمل، وقد يقيصّ عليهم ما حدث له قبل أيام أو أشهر أو سنوات، وقد يحدث أطفاله عن أشياء حدثت قبل آلاف أو ملايين السنين، وقد يحدثهم عن أشياء لم تحدث بعد، بل يتوقع أن يفعلها في المستقبل القريب أو البعيد.

الحيوانات لا تستطيع استعمال رموز مثل الرموز اللغوية ولا يمكن لقطّ أو فأر أن يخبر أطفاله عمّا حدث له في الماضي أو ما يريد أن يفعله في المستقبل. الحيوان يتعلم فقط من التجارب المباشرة، أمّا الإنسان فيتعلم مما مرّ به بنو الإنسان عبر آلاف أو ملايين السنين. عن طريق مقدرة الإنسان الكبيرة على التعلم ومقدرته على استعمال الرموز أصبح لدى الإنسان "ثقافة" يستعين بها على البقاء، كما يستعين الحيوان على البقاء بأساليب السلوك الغريزيّة.

الثقافة الرسمية والشعبية: أصبح لدينا الآن صورة واضحة عن معنى "الثقافة" التي بها تعيش وتستمر حياة المجتمعات البشرية. ولكن ما علاقة كل ذلك بالتراث الشعبي أو الفولكلور الذي هو همّنا الأساسي في هذه الحلقة؟

العلاقة طبعاً قوية، وإلاّ لما كنّا أضعنا كل هذا الجهد في التعرف على الثقافة! تأتي العلاقة من حقيقة أنّ الثقافة نوعان: ثقافة رسمية وثقافة شعبية، والتراث الشعبي يكون الجزء الأهم والأكبر من الثقافة الشعبية. دعونا نتعرف أولاً على كيفية تقسيم الثقافة إلى رسمية وشعبية، ثم نعود بعد ذلك إلى موضوع التراث الشعبي.

قسم ثقافة مجتمع من المجتمعات البشرية إلى قسمين رئيسيين يطلق على القسم الأول الثقافة الرسمية، وقد يشير إليه البعض بمصطلح "الثقافة العليّا أو الكبرى"، ويطلق على الثاني "الثقافة الشعبية" وربما أشار لها البعض بمصطلح "الثقافة الصغرى أو الدنيا".

تنتقل الثقافة الرسمية من جيل إلى جيل من خلال المؤسسات والأجهزة الرسمية أو شبه الرسمية مثل جهاز التربية والتعليم، الجامعات والمعاهد، المؤسسات الدينية الرسمية، القوانين الرسمية، الأدب والفن العالي المعترف به رسمياً، وغير ذلك من المعارف والرموز الثقافية التي ترعاها وتحافظ عليها وتضمن استمرارها المؤسسات الرسمية في الدولة أو المجتمع مثل المحاكم والوزارات والدوائر الحكومية أو المرخصة أو الموافق عليها ومعترف بها من قبل هذه الدوائر الرسمية.

أمّا الثقافة الشعبية أو أساليب الحياة الشعبية فهي النتاج العفوي الجماعي المعبر عن شعور وعواطف وحاجات وضمير أبناء الشعب بشكل عام، وليس النخبة أو المجموعة الخاصة، وتنتقل من جيل إلى جيل، كما تنتشر بين الناس من جماعة إلى أخرى ومن فئة



إلى أخرى، بشكل عفوي، مشافهة أو عن طريق التقليد والمحاكاة والملاحظة. والرموز التي تكوّن هوية شعب من الشعوب أو أمة من الأمم تستقي مضمونها ومعانيها وأهميتها من كلاء النوعين الرسمي والشعبي من الثقافة. ولكنني أعتقد أن الرموز المستوحاة من الثقافة الشعبية هي العنصر الأهم في تكوين الهوية الجماعية للشعب أو للأمة، وهي الجزء الأهم في الحفاظ على هذه الهوية، وفي ضمان استمراريتها وفي تعزيزها وتثبيتها، وذلك لعدد من الصفات تتوفر في الثقافة الشعبية دون الرسمية. الثقافة الرسمية مثلاً من صنع النخبة أو الخاصة، وهي نتيجة تخطيط وتفكير واعٍ، ولا تتبع بشكل عفوي من روح المجتمع، وهي كثيراً ما تكون عملية منطقية ينقصها التعبير العاطفي ولا تلهب العواطف، ولا تستثير الهمم، وهي مألوفة عادة للنخبة من المتعلمين والمتقنين، وقد لا يتمكن من فهمها وتذوقها سوى تلك النخبة، وهي كثيراً ما تكون عالمية، فلا تصلح لتمييز شعب عن شعب آخر أو مجتمع عن مجتمع آخر، وهي تحتاج إلى جهاز رسمي تقوم عليه عادة السلطة المركزية من حكومة أو دولة لنشرها وتعميمها ونقلها من جيل إلى جيل. أما الثقافة الشعبية فهي من صنع عامة الشعب، نابعة من روح الشعب ومن شعوره وضميره لها انتشار واسع بين عامة الشعب، أسهل على الاستعمال والفهم والحفظ، تعبّر عن العواطف والشعور الشعبي، قادرة على الهاب عواطف عامة الشعب واستثارة هممهم، وهي تنتقل عبر الزمان والمكان من مجموعة إلى أخرى ومن جيل إلى جيل بعفوية وبساطة عن طريق المشافهة والمحاكاة والتقليد دون الحاجة إلى تدخل أو تحكم سلطة أو جهاز أو إدارة رسمية، ويمكن استعمالها في مناسبات وأطر أوسع، وكثير من رموزها مادية ظاهرة ملموسة تسهل التعبير عن هوية صاحبها ببساطة ووضوح، مثل الملابس الشعبية أو الأكلات الشعبية وما إلى ذلك من نواحي الحياة الشعبية.

التراث وغير التراث : في الفقرات الأخيرة قسمنا ثقافة المجتمع عمودياً إلى نصفين رسمي وشعبي، هناك طريقة أخرى لتقسيم الثقافة يمكن أن نصفها بأنها أفقية، وهي أن نقسم الثقافة ككل رسمية وشعبية إلى قسمين: ما هو تراث وما لا يمكن اعتباره من التراث. بشكل عام القسم التراثي هو الجزء الذي نقدّره ونحترمه ونمجّده أكثر من غيره . فمثلاً في الثقافة الرسمية نعتبر المعلقات "تراثاً" ولكن هذا لا ينطبق على كل شعر قالته العرب، فبعض الشعر الرسمي تافهاً ولا يستحق أن نكرّمه بوصفه تراثاً. كذلك لا أحد يشك في لثون قبة الصخرة في القدس وجامع الحمراء في الأندلس من التراث المعماري العربي - الإسلامي، ولكن ليس كل بيت أو عمارة بناها العرب تستحق اسم تراث معماري عربي أو إسلامي.

بنفس المنطق، ليس كل جزء من حياة الشعب يستحق أن يوصف بأنه تراث شعبي، فالكثير مما يمارسه أو يستعمله أو ينتجه أو يقوله الناس في حياتهم اليومية العادية يذهب بعد فترة قصيرة من ظهوره إلى مزبلة التاريخ، ولا نحفظ به ولا نعرف عنه شيئاً، فهناك بعض الأغاني الشعبية ما زلنا نحفظ بها ونرددتها منذ أيام الدولة العثمانية أو ما قبل ذلك بينما اختفت ملايين الأغاني الشعبية التي رددتها رجال ونساء عرب أو فلسطينيون عبر التاريخ مما لم نحفظ به.

لحم من القصص التي رددتها الناس عبر العصور اختفت! لا بد أن إعادها كانت بالملايين! ولكن هناك من القصص الشعبي التراثي أمثال قصة جبينه ونص انصيص والشاطر حسن والطير الأخضر وغيرها يقول لنا الدارسون أنّ عمرها قد يصل إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، وأن بعضها وصلنا من الحضارات القديمة مثل الفرعونية والسومرية والآشورية والفينيقي وغيرها، ويقال أن البعض من هذه القصص قد وصلنا من الحضارات القديمة من بلاد الهند والصين .



بهذا نكون قد وصلنا إلى تقسيم ثقافة المجتمع، أيّ مجتمع، إلى أربعة أجزاء، فأصبح لدينا:

1. ثقافة رسمية تراثية.

2. ثقافة رسمية عادية (غير تراثية).

3. ثقافة شعبية تراثية.

4. ثقافة شعبية عادية (غير تراثية).

نعود الآن إلى ما بدأنا به هذه الحلقة وما كنا انهيينا به الحلقة الأولى من ذكر الفوضى والبلبله التي كانت، وما زالت، تسود الحركة الفولكلورية الفلسطينية. نأمل أن يكون الآن قد اتضح للقارئ الكريم الذي تابع الحلقتين الأولى والثانية، ما هو المقصود ببعض مصطلحات الفولكلور مثل الثقافة، التراث، الرسمي، الشعبي، وعدد آخر من المصطلحات ذات العلاقة. وباستعمال هذه المصطلحات نستطيع أن نلخص المشكلة التي نحن بصدها منذ البداية بأن الفوضى والبلبله التي ذكرناها نشأت من الخلط الذي يحدثه بعض العاملين في الحقل بين أجزاء الثقافة الأربعة التي ذكرناها قبل قليل، ويكون هذا الخلط بشكل عام واحد من اثنين، إما خلط بين الثقافة الرسمية من جهة والثقافة الشعبية من جهة أخرى، أو عدم التمييز بدقة بين ما هو تراثي من جهة وما هو عادي أو غير تراثي من جهة ثانية.

في الحلقة القادمة، الثالثة بتوفيق الله ومشيئته، سنقدم بعض المواصفات الرئيسة للفولكلور أو التراث الشعبي الحقيقي ونوضحها بأمثلة ملموسة من الممارسات الفولكلورية الفلسطينية، بحيث يتمكن القارئ المتابع لحلقات هذه السلسلة من مشاركتنا في الحكم على مدى صحة العينات والممارسات الفولكلورية التي يشاهدها في حياته اليومية في إطار مجتمعنا ومؤسساتنا الفلسطينية، فإلى اللقاء.

المراجع:

نذكر فيما يلي عينة مختارة من المصادر الفولكلورية ذات العلاقة بالمواضيع والقضايا التي تطرقنا إليها في هذه الحلقة :

1) البرغوثي، عبد اللطيف.

1985 بين التراث الرسمي والتراث الشعبي، أبحاث متفرقة رقم 5، مركز الوثائق والأبحاث، جامعة بير زيت.

2- كناعنه، شريف.

1985 ملامح المادة الفولكلورية، أبحاث متفرقة رقم 2، مركز الوثائق والأبحاث، جامعة بير زيت.

3- مهوي، ابراهيم وشريف كناعنه.

2001 قول يا طير: نصوص ودراسة في الحكاية الشعبية الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.